

أدب الطفيليين

التأصيل والخصائص العامة

أ.م.د. مزاحم مطر حسين

جامعة القادسية / كلية التربية



بسم الله الرحمن الرحيم

التطفيل سلوك يقوم على انتهاك الخصوصيات في المناسبات الاجتماعية القائمة على اصطناع المأكولات.

والطفيلي هو الشخص الذي يتعرض لطعام الآخرين من غير أن يدعى إليه^(١). وقد استأثرت هذه الظاهرة باهتمام العلماء القدامى فدعتهم إلى إفراد المؤلفات الخاصة بها، فضلاً عن تخصيص بعض الأبواب المستقلة في كتب الأدب؛ فممن أفرد هذا الموضوع بالتأليف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) ولعله كان سباقاً في التصدي لرصد هذه الظاهرة بتخصيصه كتاباً كاملاً فيها كما يوحى بذلك عنوان مؤلفه (كتاب الطفيليين)^(٢).

ثم قام بعد ذلك أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) بتأليف (كتاب أخبار الطفيليين)^(٣). ووضع الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) كتاب (التطفيل وحكايات الطفيليين و أخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم)^(٤).

وممن خصص باباً للحديث عن الطفيليين ابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ) في كتابه (العقد الفريد) وقد عنونه ب(أخبار الطفيليين)^(٥)، ومنصور بن الحسين الآبي (٤٢١هـ) في كتابه (نثر الدر) بعنوان (نوادر الطفيليين والأكلة)^(٦)، والحصري القيرواني (٤٥٣هـ) في كتابه (زهر الآداب) تحت عنوان (ألفاظ لأهل العصر في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم)^(٧)، وابن حمدون (٤٥٩هـ) في موسوعته (التذكرة الحمدونية) بعنوان (في التطفيل وإخبار الطفيليين)^(٨)، وابن الجوزي (٥٠٨هـ) في كتاب (الأذكياء) بعنوان (في ذكر طرف من فطن المتطفلين)^(٩)، والنويري (٧٣٣هـ) في موسوعته الأدبية (نهاية الأرب في فنون الأدب) بعنوان (ذكر ما قيل في التطفيل)^(١٠)، وابن طولون (٨٨٠هـ) في كتابه (فص الخواتم فيما قيل في الولائم) بعنوان (التطفل والطفيليون)^(١١).

ولاشك عندي أن اهتمام الباحثين القدامى بهذه الظاهرة على هذا النحو متأت من إحساسهم بأهمية دراستها؛ لأنها بدأت تثير كثيراً من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة. ونحن بدورنا نحاول أن نجد الإجابة عند القدماء عن بعض الأسئلة التي تناسب ما يفكر به الباحث المعاصر والتي تلح على عقولنا ونحن نناقش ظاهرة اجتماعية قد أسهمت على نحو ملحوظ في نشوء مادة أدبية شغلت مساحة واسعة من كتب الأدب وضعت تحت عناوانات شتى ولكنها تدور على محور واحد هو (التطفيل).

مرت هذه الظاهرة فيما يبدو بسلسلة من التطورات و التحولات التاريخية على مستوى الاستعمال اللغوي و الاجتماعي ، والذي يطمئن إليه أن هذه الظاهرة كانت موجودة منذ أزمان بعيدة لارتباطها بالعوز و الفقر اللذين لا يمكن أن تخلو منهما حياة الناس في العصور المختلفة؛ غير أنها كانت تُعرف بأسماء متعددة ليس بينها لفظ (التطفيل) ، لان هذا الاصطلاح فيما يبدو متأخر نسبياً في دلالاته على هذه



الظاهرة ، وهذا ما أشار إليه الجاحظ في وقت مبكر عندما ذهب إلى أن (قول الناس: فلان طفيلي ، ليس من أصول كلام العرب، ليس كالراشن والمموظ، وأهل مكة يُسمونه البُرقيّ)^(١٢) وأكدّه السيوطي (٩١١هـ) فيما بعد بقوله : (الطفيلي مُحَدَّثَةٌ لا توجد في العتيق من كلام العرب)^(١٣) .

ولا ندري بالضبط متى تحول وصف الشخص الذي يدخل الولائم دون أن يُدعى إليها من هذه الاستعمالات المختلفة (كالراشن والمموظ والبُرقيّ وغيرها) إلى (الطفيلي) الذي أصبح على ما يبدو أكثرها استعمالاً وأوسعها انتشاراً وهذا ما تؤيده تلك الكتب الأدبية التي سبقت الإشارة إليها فهي قد عنونت الأبواب (بالتطفيل) و(الطفيلي) دون سائر الاستعمالات الأخرى .

غير أن ثمة بعض الإشارات التاريخية التي قد تنفعنا بعض الشيء في الاهتمام إلى الزمن التقريبي الذي بدأت فيه هذه اللفظة تأخذ بدايتها في الاستعمال، إذ تذكر كتب التراث أن لفظ (الطفيلي) المحدث هذا جاء أصلاً من النسبة إلى شخص يقال له (طفيل بن زلال) لقّب ب(طفيل الأعراس) و(طفيل العرائس)، وهو رجل من أهل الكوفة، من بني عبد الله بن غطفان^(١٤)، وأنه كان من موالى الخليفة عثمان بن عفان (٣٥هـ)؛ فإذا نظرنا إلى هذه المعلومة بعين الاعتبار ؛ يكون طفيلي الأعراس هذا من أبناء النصف الأول من القرن الأول للهجرة (النصف الثاني من القرن السابع للميلاد) .

وبما إن هذه المصادر التي أوردت ذكر طفيلي الأعراس أو العرائس تجمع على أنه رأس الطفيليين وإليه تُسبب الطفيليون فيما بعد؛ فيكون على هذا تحول وصف هذا السلوك من تلك الاستعمالات المختلفة إلى الطفيلي في حدود هذا الزمن الذي ذكرناه .

والتطور الاجتماعي المنطقي الذي خضع له هذا السلوك يفرض علينا الإقرار بأن هذا (التطفيل) بمختلف تسمياته كان في بادئ الأمر مدفوعاً بالحاجة الحقيقية للطعام وباعثه الإحساس بالجوع والحرمان وهو ما تُشير إليه بعض المصادر في محاولة منها لتلمس وجوه أخرى لاشتقاق لفظة الطفيلي فذهبت إلى القول بأن هذا اللفظ مشتق من (الطفل) وهو الظلمة لأن الفقير من العرب كان يحضر الطعام الذي لم يدع إليه مستتراً بالظلمة لئلا يُعرف^(١٥) .

غير أن هذا السلوك ما لبث أن تحول بعد حين (على أيدي فئة من الطفيليين) من سلوك مدفوع بالحاجة الحقيقية للطعام إلى سلوك يجد متعة خاصة في اقتحام الخصوصيات الاجتماعية القائمة على صنّع الأطعمة والمشروبات من غير التضور جوعاً أو وجود حرمان حقيقي . وقد وصف فعلهم هذا في كتب التراث بأنه مشتق من (الظلمة) أيضاً ولكن بلحاظ آخر ينظر إلى أحد الأمرين:

أنهم سُموا ب(الطفيليين) لإظلام أمرهم على الناس فلا يدري من دعاهم^(١٦) .

أو أنهم سُموا بذلك من الطفل لهجومهم على الناس كهجوم الليل على النهار^(١٧) .



والأدلة على وجود هذه المجموعة من المتطفلين من غير جوع حقيقي كثيرة؛ لعل أقربها إلينا ما نجده في كتاب الخطيب البغدادي، فقد خصص باباً يحكي عن هؤلاء وضعه تحت عنوان (باب من طفل من الأكابر والأشراف وأهل العلم والأدب)^(١٨) وقد ذكر حكايات لبعض الشخصيات التي كانت أبعد ما تكون عن الحاجة الحقيقية للطعام أو الإحساس بالحرمان^(١٩).

ويظهر واضحاً أن هذه الفئة الأخيرة بالذات هي من شكلت ما يمكن أن نطلق عليه (أدب الطفيليين) وهي مادة أدبية خاصة بهم، قد تنوعت بين الحكايات، والنصائح الوصايا، والأسئلة والأجوبة.

وهذه الفئة تصرح بالتطفيل ولا تتكتم به، وإذا كانوا يتسترون وينكرون التطفل فما ذاك إلا لأجل أن يدخلوا البيوت ويحضرُوا الولائم؛ أما فيما بعد ذلك فإن الطفيلي لا يأنف من التصريح بأنه طفيلي على خلاف غيره من الشخصيات الهامشية التي عاصرت ظهور التطفل كشخصية البخيل التي تجتهد في إخفاء صفة البخل مثلاً. وهو اعتراف منها أن البخل رذيلة^(٢٠).

فالطفيليون يصرحون بكل وضوح عن توجهاتهم، ويعبرون عن أنفسهم بضمير الجمع (نحن) ويجاهرون بالتطفيل ويفخرون به، وهذا يعني أن شخصية الطفيلي على ما يبدو منسجمة مع ذاتها، فهي لا ترى في هذا السلوك رذيلة، ولذا نجد أحدهم وهو يعبر عن سلوك جماعته يرى أنه إذا لم تكن ثمة دعوة فإن التطفل خير من يدعوهم إلى حضور الولائم تلك فيقول :

نحن قوم إذا دُعينا أجبنّا ومتى نُمنسَ يدُعنا التّطفيل
ونقل عَنّا دُعينا فغبنّا واتانّا فلم يجدنا الرسول^(٢١)

في حين يراه آخر من الخلق الكريم إذ يقابل جفاء الناس بصلتهم فيقول :

نحن قوم إن جفّا النَّاسُ وصَلّانا مِن جفانّا
لا نبالي صَاحِبَ الدَّارِ نَسْـيُنا أم دَعَانّا^(٢٢)

ويراه آخر من الغنيمة التي ينبغي السعي إليها مهما كان المكان بعيداً لأنها بلا ثمن فيقول :

نحن عبيد البطون نأكل ما ندعى إليه ولو إلى عدن
نأكل ما جاءنا ولا سيما إذا ظفّرنا به بلا ثمن^(٢٣)

ويراه آخر من صنيع الإقدام المحمود الذي لا يحسنه إلا الكرام فيقول :

نحن قوم نحسن الأقدام في وقت الزحام هكذا فليكن التطفيل تطفيل الكرام^(٢٤)

في حين يراه آخر من محبة هدي الرسول القاضي بإجابة الدعوة مهما كانت متواضعة وبسيطة فيقول :

نحن قوم نحب هدي رسول اللـه هـديا به الصواب أصبنا
فادعنا كلما بسطت فانا لو دعينا إلى كراع اجبنا^(٢٥)



فضلاً عن نصوص أخرى تصرح بانتهاج هذا التطفيل صراحة^(٢٥) على نحو واضح لا لبس فيه .

دواعي التطفيل:

وليست الإجابة عن هذا السؤال بالأمر الهين؛ ذلك أن الطفيلي ذو شخصية معقدة بعض الشيء و قد عصف بها الظروف الاجتماعية والنفسية، فصاغت في قالب فريد ،أقل ما يُقال عنه أنه يجمع الأضداد، فالعلم والأدب لا يقفان عائقاً في هذه الشخصية عن بذل ماء الوجه في سبيل الحصول على أكلة، والمعرفة الدقيقة بالنصوص والأحكام الدينية لا يتقاطعان مع تحمل الإهانة من أجل لقمة ،والذكاء الحاد والفتنة المتوقدة لا يتعارضان مع التوبيخ الشديد طمعاً في الدخول إلى وليمة .

وعلى الرغم من كل ذلك يمكن تلمس بعض الأسباب التي نعتقد أنها كانت تقف وراء هذا الاندفاع في سلوك التطفيل ، يأتي في مقدمتها ما يمكن أن نصلح عليه ب(متعة التطفيل) التي لا تتحقق إلا بخرق المألوف من العادات، ولعل أصدق مصاديق هذه الرغبة في الحصول على هذه المتعة ما نجده في حكاية تطفل إسحاق بن إبراهيم الموصللي إذ يقول : (غدوت يوماً و أنا ضجر من ملازمة دار الخلافة و الخدمة فيها، فخرجت، و ركبت بُكرة ، و عزمت على أن أطوف الصحراء، و أتفرج ٠٠٠) (٢٦) ثم كانت بعد ذلك قصة تطفله على بيت المغنية .

ويظهر واضحاً أن مبعث هذا الخروج الذي انتهى بتطفل هذا الرجل بباب تلك المرأة ؛كان محاولة منه للتخلص من هذا السياق الرتيب الذي أفضى بالرجل إلى حالة من الملل لم يجد بداً من كسره عله يظفر بمتعة جديدة فكان التطفيل سبيلها .

وما أراده الموصللي هنا هو ما عبر عنه عثمان بن درّاج أحد أشهر رجال التطفيل شعراً بقوله:

لـدّة التطفيل دومي وأقيمــــي لا تريمــــي
أنــــت تشــــفين غايــــي وئــــســــ أين همــــومي^(٢٧)

وعبر عنه أحد الطفيليين أيضاً بقوله:

إن شــــكري لمنــــة التطفيل و أياديــــه منــــذ دهر طويــــل
كم تراني قد نلت من لذة العي ش بأســــبابه وحــــظ جزــــيل
و تمتعت من طعام لذيــــذ و ســــماع فيــــه شــــفاء العليــــل
فإذا ما عرفت مجتمع الإخ وان في بيت صااحب أو خــــليــــل
كان إتيانــــه صواباً على الان س ولم أجتنــــب كفعــــل الثقــــيل
و جعلت السعي السبيل إلى ذا ك و لم أنتظر مجيــــء الرســــول
فأبن لي أين اجتماعكم اليو م إلى ذي ســــماحة أو بــــخيــــل؟



فلعلني أكون لا أعرف الدار فأحتال في حضور الدليل^(٢٨)
فهذا التطفيل بحسب ما يراه الشاعران هنا هو السبيل لنسيان الهموم و التخلص من الآلام و الاوجاع .
و الانسياق وراء التطفيل إنما كان يمثل حلاً مناسباً عند هؤلاء الأشخاص لأنه يستلزم تغيير المكان
الذي تم الاعتياد عليه أولاً ، ويضع الطفيلي في أجواء جديدة مليئة بالفرح والسرور ثانياً ، ويوفر له ألواناً
مختلفة من الأطعمة ثالثاً وهي الأمور التي تغل بها عثمان بن درّاج عندما عرض عليه سعيد بن عبد
الكريم الخطابي أن يترك التطفيل مقابل أن يجعل له وظيفة قائلاً: (ويحك! إنني أبخل بأدبك وعلمك
، وأضنّ بك عما أنت فيه من التطفيل ولي وظيفة راتبه في كل يوم ، فالزمني وكن مدعوّاً، أصلح لك مما
تفعل ، فقال : يرحمك الله فأين لذة الجديد ، وطيب النقل كل يوم إلى مكان ؟ وأين هُويناك ووظيفتك من
ألوان الوليمة؟ قال : فأما إذا ثبت ذاك : فإذا ضاقت عليك فأتني . قال : أمّا هذا فنعم)^(٢٩) .

أما الأمر الآخر الذي يمكن أن يكون أحد دوافع التطفيل فهو ما يمكن أن نطلق عليه بالتمرد الاجتماعي
وعدم الاكتراث بالقيم السائدة ، وهو يشعروا بأن بعض الطفيليين كانوا يحتفظون بوجهات نظر سلبية
اتجاه الناس ، مع حالة من اليأس من خيرهم ، وخصوصاً فيم يتعلق بناحية الإحسان وتقديم العون
والمساعدة ، ولعل أحدهم قد صوّر تلك الأمور الأنفة شعراً بقوله :

ولما رأيت الناس ضنوا بمالهم فلم يكُ فيهم من يهش إلى الفضل
ولم أرَ فيهم داعياً لابن فاقة يحن إلى شرب و يصبو إلى أكل
ركبتُ طفلياً وطوّفت فيهم ولم أكتثر للحلم والعلم والأصل^(٣٠)

فسبب اندفاع هذا الرجل نحو التطفيل هو ردة فعل متمردة ازاء حالة اليأس من الناس ونفعهم ، مما أدى
به إلى عدم المبالاة بالقيم الاجتماعية التي ذكرها

وقد يكون الانسياق وراء الأريحية النفسية يشكل أحد دوافع (تطفيل الكرماء) الذي لا يعد من التطفيل إلا
على نحو من التسامح ، إذ يندفع هؤلاء الأشخاص بصورة عفوية في التعاطي مع المجرّيات من غير
روية مثلما حصل عندما (مر عبد الله بن جعفر ومعه عدة من أصحابه بمنزل رجل قد أعرس وإذا مغنية
تقول:

قل لكـرام ببابنا يلجوا ما في التصابي على الفتى من حرج

فقال عبد الله لأصحابه : [لجوا فقد أذن لنا القوم ، فنزل و نزلوا فدخلوا فلما رآه صاحب المنزل تلقاه
وأجلسه على الفراش ...]^(٣١) وكانت النهاية أن دفع عبد الله بن جعفر للرجل كل ما أنفقه في الوليمة
بأسرها وزاده معونة ، وهذا الدخول إلى هذه الوليمة وأن لم يكن بدعوة مسبقة إلا إنها ليست من قبيل
التطفيل الحقيقي ، بدليل هذا الترحاب من صاحب المنزل ، فضلاً عن تعويض صاحب الوليمة بمبلغ
يفوق ما أنفق فيها .



الخصائص العامة لشخصية الطفيلي :

العناية بالمظهر الخارجي :

يظهر الطفيلي في كثير من الأحيان من خلال النصوص التي وردت في أدب الطفيليين بمظهر الشخصية التي تدرك تماماً أنه شخص غير مرحب به ،ولذا فهو قد أعد لهذا الأمر عدته باعتماده على جملة من الأمور التي شكلت بالتالي شخصيته الطفيلية، يأتي في مقدمتها : عناية الطفيلي بمظهره الخارجي ، فهو متأنق في ملبسه ،نظيف الثياب ، عطر الرائحة،وهذا ما نجده في حديث منصور بن علي الجهمي أحد المتبرمين من الطفيليين إذ يقول : (كان لي جار طفيلي من أحسن الناس منظراً وأعذبهم منطقاً و أطيبهم رائحة و أجملهم ملبوساً، وكان من شأنه أنني إذا دُعيت إلى دعوة تبعني، فيكرمه الناس من اجلي ، ويظنون أنه صاحب لي،...) (٣٢).

ومن شأن هذه العناية بالمظهر الخارجي أن تحقق للطفيلي عنصر الإيهام الذي يعد عنصراً فاعلاً في توفير المقبولية له، حتى غدت هذه وصية ثابتة لمن تصدى لنصح الطفيليين، وهو ما وجدناه في رسالة تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني التي وضعها في فن التطفيل، إذ يقول : (فالبس من ثيابك الجميلة قشيبها ، وضوِّع بالمندل الرطب طيبها) (٣٣).

وقصة (طفيلي المعتصم) معروفة ، وهو شخص عزم يوماً على أن يتطفل على المأمون و المعتصم بإيهام كلا منهما انه من خواص الآخر وأول وسائله لتحقيق بغيته :عناية تامة بمظهره الخارجي ، ف(استعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب ، ولبس ، وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أنني رسول أمير المؤمنين...) (٣٤). وانتهت القصة بإعجاب المأمون بهذا الطفيلي وتقريبه.

الإلمام بالنصوص و الأحكام الدينية:

أما الأمر الآخر الذي تحصن به الطفيلي فهو الإلمام بالمعرفة العامة التي تؤهله للرد على المفاجآت المختلفة ، فنجده ملماً بالنصوص و الأحكام الدينية التي يُحسن استغلالها في الدفاع عن التطفيل (٣٥) ، فبنان الطفيلي وهو من أشهر الطفيليين قد حسم أمره في حلية ما يأكله من طعام في تطفله ، فقد أشكل عليه احدهم بمضمون حديث للنبي قائلًا : (من دخل إلى طعام لم يُدع إليه دخل لصاً، وخرج معيراً ؛ فقال : أما إنا فلا آكله إلا حلالاً. قيل له : وكيف ذاك؟ قال أليس صاحب الوليمة يقول للخبّاز أبداً :زد في كلّ شيء فانه يجيئنا من ثريد ومن لا نريد؟ فانتم ممن يريد وأنا ممن لا يريد) (٣٦).

فبنان الطفيلي قد وظف عبارة (من لا نريد) التي يقولها صاحب الوليمة ليفهم منها أنها إجازة بالفحوى ، لان صاحب الدعوة قد ادخل في حسابه مجيء الطفيليين ، و أمر طباخه أن يزيد في كلّ شيء توقعا لمجيئهم.



وإذا كان بنان قد من تمكن الالتفاف على مضمون الحديث ؛ فان طفيليا آخر لم يقنع إلا بان يضعف سند هذا الحديث ويضعف مضمونه لان إجماع المسلمين على خلافه متهما من احتج بهذا الحديث : بأنه لا يستحي من أن يحدث : (عن درست بن زياد وهو ضعيف ، عن إبان بن طارق وهو متروك الحديث بحكم رفعه الله إلى النبي (ص) والمسلمون على خلافه، لان حكم السارق القطع والمغير يعزر على ما يراه الإمام ، وهذان حكمان لا ينفذان على داخل دارا في مجمع فيتناول لقما من فضل الله الذي أتى أهلها ثم لا يحدث حدثا حتى يخرج عنها ، وقد قال النبي (ص) : (طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة)، حدثنا بذلك أبو عاصم النبيل عن ابن جريح عن أبي الزبير عن جابر عن النبي (ص)، فأين أنت عن هذا الحديث الصحيح الإسناد و المتن؟(٣٧).

وبغض النظر عن الدقة العلمية التي تتصف بها حجج هذا الطفيلي؛فانه استطاع أن يسكت خصمه،ويجعله في موقف حرج لا يحسد عليه. وهو ما يؤشر تسليح الطفيلي بالمعرفة ليتمكن من توظيفها في خدمة التطفيل.

ومن أمثلة توظيف النصوص القرآنية في التطفيل ما ورد من اجتماع (جماعة على عصيدة فأخذ بعضهم لقمة وألقاها في السمن وقال {فككبوا فيها هم والغاؤون}{الشعراء:٩٤} وجر السمن إليه وقال الآخر {إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور}{الملك:٧} وجر السمن إليه وقال الآخر {وبئر معطلة وقصر مشيد}{الحج:٤٥} وجر السمن إليه فقال الآخر {أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاَ أمراً}{الكهف:٧١} وجر السمن إليه فقال الآخر {إنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز}{السجدة:٢٧} وجر السمن إليه فقال الآخر {فيهما عينان تجريان}{الرحمن :٥٠} وجر السمن إليه فقال الآخر {فيهما عينان نضاختان}{الرحمن :٦٦} وجر السمن إليه فقال الآخر {فالتقى الماء على أمرٍ قدر}{القمر:١٢} وجر السمن إليه فقال الآخر {فسقناه إلى بلد ميت}{فاطر:٩} وجر السمن إليه فقال آخر {وقيل يا أرض ابلعي ماءك وسماء أفلقي}{هود:٤٤} وخط السمن بما بقي من العصيدة فأخذه كله(٣٨)

ومن أمثلته هذا التوظيف ما ورد من حكاية بنان الطفيلي مع شخص كان يأكل الحلوى، إذ أراد بنان أن يستدرج الرجل كي يتفضل عليه بالحلوى، فما كان منه إلا أن يطلب قطع الحلوى بنصوص قرآنية قائلا(يا سيدي: { إن إلهكم لو احد}{الصافات:٤} فأعطاني واحدة، فقلت: { إذ أرسلنا إليهم اثنين}{يس:١٤} فأعطاني ثانية، فقلت: {فعززنا بثالث}{يس:١٤} فأعطاني الثالثة، فقلت: {فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك}{البقرة:٢٦٠} ، فأعطاني رابعة، فقلت: { خمسة سادسهم كلبهم}{الكهف:٢٢} ، فأعطاني خامسة، فقلت: { خلق السماوات والأرض في ستة أيام}{الأعراف:٥٤} ، فأعطاني سادسة، فقلت: { سبع سماوات طباقا}{الملك:٣} فأعطاني سابعة، فقلت: { ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين}{الإنعام:١٤٣} فأعطاني ثامنة، فقلت: { تسعة رهط يفسدون في الأرض}{النمل:٤٨} فأعطاني تاسعة، فقلت: {



تلك عشرة كاملة {البقرة: ١٩٦} ، فأعطاني عشرة، فقلت: { يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً {يوسف: ٤} ، فأعطاني الحادية عشرة، فقلت: { إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله {التوبة: ٣٦} فأعطاني الثانية عشرة. فقلت: { إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين {الأنفال: ٦٥} فخلق بالجام إليّ وقال: كل يا ابن البغيضة، فقلت: والله لئن لم تعطينيه لقلت: { وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون {الصافات: ١٤٧} قال: فضحك من قلبي وأمر لي بثلاثة آلاف درهم(٣٩). ويظهر من هذه الأمثلة أن للإحاطة بالنصوص هدفاً وحيداً عند الطفيليين؛ وهو الحصول على الطعام، وإن هذه النصوص موظفة لهذا الغرض.

الذكاء الحاد:

وثمة أمر آخر يكشفه أدب الطفيليين؛ ذلك أن شخصية الطفيلي امتازت بالذكاء الحاد بحسب ما تصوره نصوص هذا الأدب، غير أن هذا الذكاء مسخر للغرض ذاته وهو كيفية الحصول على الطعام، وهو ما دعا ابن الجوزي إلى إن يضع المتطفلين في عداد الأذكاء، فخصص الباب السابع والعشرين من كتاب الأذكاء لذكر طرف من فطن المتطفلين.

وتتجلى مصاديق هذا الذكاء في الاحتيال بشتى الأساليب للدخول إلى الولائم؛ وغالباً ما يوظف الطفيلي ذكائه في هذا الباب، فيأتي بالعجب العجيب، فهذا طفيلي قدم إلى وليمة فوجد الباب قد أرتج دونه، فما كان منه إلا أن يسأل عن صاحب الصنيع إن كان له ولد غائب أو شريك في سفر؟ فاخبر عن ولد له في بلد ما، (فأخذ رقاً أبيض وطواه وطبع عليه، ثم أقبل متدلاً، فقعق الباب قعقة شديدة، واستفتح، وذكر أنه رسول من عند ولد الرجل. ففتح له الباب، وتلقاه الرجل فرحاً، وقال: كيف فارقت ولدي؟ قال له: بأحسن حال، وما أقدر أن أكلمك من الجوع. فأمر بالطعام فقدم إليه، وجعل يأكل، ثم قال له الرجل: ما كتب كتاباً معك؟ قال: نعم، ودفع إليه الكتاب. فوجد الطين طرياً. فقال له: أرى الطين طرياً، قال: نعم. وأزيدك أنه من الكد ما كتب فيه شيئاً. فقال: أطفيلي أنت؟ قال: نعم أصلحك الله. قال: كل: لا هناك الله(٤٠).

وهذا طفيلي آخر منع من الدخول (فذهب إلى أصحاب الزجاج ورهن رهناً، وأخذ عشرة أقداح، وجاء وقال للبواب: افتح حتى أدخل هذه الأقداح التي طلبوها. ففتح له، ودخل وأكل وشرب مع القوم، ثم حمل الأقداح، وردها إلى صاحبها، وقال: لم يرضوها، وأخذ رهنه(٤١).

الاعتماد على الحدس:

والطفيلي قد يغريه هذا الذكاء فيدعوه إلى الاعتماد على حدسه، وربما أورده ذلك في المهالك؛ كما حصل ذلك مع الطفيلي الذي أبصر مجموعة من زنادقة البصرة، كان المأمون قد أمر أن يُحملوا إليه، فقال الطفيلي في نفسه: (ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فأنسل فدخل وسطهم، ومضى بهم المتوكلون حتى انتهوا بهم إلى زورق قد أعد لهم، فدخل الزورق، فقال الطفيلي: هي نزهة. فدخل معهم، فلم يكن بأسرع من أن



قيدوا وقيد معهم الطفيلي، ثم سير بهم إلى بغداد، فأدخلوا على المأمون، فجعل يدعو بأسمائهم رجلاً رجلاً، فيأمر بضرب رقابهم، حتى وصل إلى الطفيلي، وقد استوفى العدة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم، فجئنا به. فقال له المأمون: ما قصتك؟ ويلك! قال: يا أمير المؤمنين. امرأته طالق إن كان يعرف من أحوالهم شيئاً، ولا مما يدينون الله به، إنما أنا رجل طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة. فضحك المأمون، وقال: يؤدب! (٤٢).

الطرافة والهزل:

ومن نهاية هذه الحكاية المتقدمة نعرف أن الطفيلي إذا وقع في بعض المشاكل من هذا القبيل بدافع من اعتماده على حدسه؛ فطرافته وهزله وإضحائه قد تنفع في تخليصه منها، وهي خصيصة أخرى ميزت شخصية الطفيلي، كما حصل ذلك مع طفيلي نظر (إلى قوم من الزنادقة يسار بهم إلى القتل، فرأى لهم هيئة حسنة وثياباً نفية، فظنهم يدعون إلى وليمة، فتلطف حتى دخل في لفيفهم وصار واحداً منهم، فلما بلغ صاحب الشرطة قال: أصلحك الله، لست والله منهم، وإنما أنا طفيلي ظننتهم يدعون إلى صنيع فدخلت في جملتهم. فقال: ليس هذا مما ينجيك مني، اضربوا عنقه. فقال: أصلحك الله، إن كنت ولا بد فاعلاً فأمر السيف أن يضرب بطني بالسيف، فإنه هو الذي ورطني هذه الورطة. فضحك صاحب الشرطة وكشف عنه، فأخبروه أنه طفيلي معروف، فخلى سبيله) (٤٣).

وربما كانت الطرافة ومعرفته بالنصوص القرآنية سبيلاً لتخليصه من بعض هذه المشاكل التي يوردها الاعتماد على الحدس، لأنهما يتعاضدان معاً لخلق جو المرح وإضحاك المقابل، كما حصل مع احد الطفيليين إذ نظر (إلى قوم ذاهبين في وجهه، فعلم أنهم يذهبون إلى وليمة، فقام وتبعهم فإذا هم شعراء قد قصدوا باب السلطان بمدائح لهم، فلما أنشد كل واحد منهم شعره وأخذ جائزته، ولم يبق إلا الطفيلي، وهو جالس لا ينطق، قيل له: أنشد، فقال: لست بشاعر. قالوا: فمن أنت؟ قال: أنا من الغاوين الذين قال الله جل ذكر فيهم:

{ والشعراء يتبعهم الغاؤون } [الشعراء: ٢٢٤] فضحك الخليفة وأمر له بمثل جائزة الشعراء) (٤٤).

حضور البديهة وسرعة الجواب:

والطفيلي بعد ذلك يمتاز بأنه قوي البديهة سريع الجواب عن كل ما يرد عليه من محرجات الحوادث، لا يطيل التأمل فتضيع فرصته، فكأنه قد اعد لكل طارئ جوابه، فهذا طفيلي دخل على (قوم فقالوا: ما دعوناك، فما الذي جاء بك؟ قال: إذا لم تدعوني ولم أجيء وقعت وحشة، فضحكوا منه وقربوه.

جاء آخر إلى قوم ودق الباب عليهم، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا الذي رفعت مئونة الإرسال عنكم) (٤٥).

وهذه البديهة وسرعة الجواب لا تقتصر على الردود النثرية؛ وإنما قد يجيب الطفيلي شعراً من غير تأخر، كهذا الطفيلي الذي (أتى طعاماً لم يدع إليه، فقبل له: من دعاك؟ فأنشأ:



دعوت نفسي حين لم تدعني فالحمد لى لا لك في الدعوة
وكان ذا أحسن من موعد مخلفه يدعو إلى الجفوة
ودخل طفيلي في صنيع رجل من القبط، فقال له: من أرسل لك؟ فأنشأ:
أزوركُم لا أكُفكم بجفوتكم إن المحب إذا ما لم يزر زارا
فقال له القبطي: زر زارا، ليس ندري، من هو؟ أخرج من بيتي^(٤٦).

وربما عمد الطفيلي إلى الجمع في جوابه بين النثر والشعر إمعانا في قوة حجته، ودحضا لمقولة من اعترض على سلوكه، وكل ذلك على البديهة وحضور الجواب، مثلما حصل مع الطفيلي الذي مر (على قوم وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دعي، فأنكره صاحب المجلس. فقالوا له: لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذن لك أو يبعث إليك؟ قال: إنما اتخذت البيوت ليدخل فيها، ووضعت الموائد ليؤكل عليها، وما وجهت بهدية، فأتوقع الدعوة، والحشمة قطيعة، واطراحها صلة، وقد جاء في الأثر: " صل من قطعك، وأعط من حرمك " . وأنشد:

كل يوم أدور في عرصة الدا ر أشم القطار شم الـذباب
فإذا ما رأيت آثار عرس أو دخاناً أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون المتقم لا أر هب طعناً أو لكزة البواب
مستهيناً بمن دخلت عليهم غيـر مسـتأذن ولا هيـاب
فتراني ألف بالرغم منهم كل ما قدموه لف العقاب^(٤٧)

الاستشارة المقصودة:

والطفيلي غالبا ذو شخصية هادئة وادعة ما لم تُستثر، غير انه قد يعمد أحيانا إلى استشارة أصحاب الطعام ببعض وسائله اللغوية كوصفهم بالأوصاف غير المحمودة بغية إلجائهم لدفعها عنهم فيلزمهم بما ألزموا به أنفسهم تصديقا لمقولتهم، مثلما حصل مع الطفيلي الذي مر (بقوم يتغدون فقال: سلام عليكم معشر اللئام. فقالوا: لا والله، بل كرام. فثنى رجله وجلس، وقال: اللهم اجعلهم من الصادقين، واجعلني من الكاذبين)^(٤٨)

وقد يعمد إلى استشارة أصحاب الطعام عن طريق طرح الأسئلة عليهم، فيوقع بهم من إجابتهم ويجعلهم حيارى لا يدرون ما يصنعون معه فيظفر ببغيته من الأكل، كهذا الطفيلي الذي دخل (على قوم يأكلون فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سمأ. فأدخل يده وقال: الحياة حرام بعدكم)^(٤٩).

العلاقات الاجتماعية النفعية:



أما فيما يخص علاقة الطفيلي الاجتماعية فهي تقوم إلى حد كبير على المنفعة المادية، فعلاقته مع رفاقه من الطفيليين سرعان ما تتحول إلى قطيعة من غير رجعة إذا ما شعر الطفيلي إن هذه العلاقة قد تُضر بحصته من الطعام، كما حصل مع هذا الطفيلي الذي قيل له (لم قطعت فلاناً صديقك؟ قال: لأنه يسبقني إلى بيضة البقيلة، وقف السمكة، وخالصة الجدي)^(٥٠). وهذه أسباب أكثر من كافية لقطع الصلة عند الطفيلي.

أما إذا كان الطفيلي هو صاحب الوليمة، عندها لن يدخر وسعا في تدبير الحيل المناسبة للتخلص من الطفيليين، فهذا أحدهم صنع وليمة (فأتاه كل طفيلي، فلما رأهم عرفهم، فرحب بهم ثم أدخلهم، فراقهم إلى غرفة بسلم، وأخذ السلم حتى فرغ من إطعام الناس، فلما لم يبق أحد أنزلهم وأخرجهم)^(٥١) وقد لا يكتفي بحيلة (السلم) وإنما يعتمد إلى التشفي منهم عن طريق التهكم بهم، كما تذكر لنا ذلك هذه الحكاية (عرس طفيلي فأتاه طفيليان في أول الناس فأدخلهما وجاء إلى غرفة له يرتقي إليها بسلم فوضع السلم وقال اصعدا لتبعدا من الأذى وأخصكما بفائق الطعام فصعدا فلما حصلا في الغرفة نحى السلم ووضع المائدة وأطعم أصدقاءه وجيرانه وهما مطلعان عليه فلما فرغ وضع السلم وقال انزلا فدفعت في إقفائهما وقال انصرفا راشدين لا أصفر الله ممشاكما قد قضيتما حق أخيكما)^(٥٢).

العلاقات العاطفية المؤقتة:

أما المشاعر العاطفية عند الطفيلي فإنها لا تمر إلا عن طريق المعدة أولاً، فالمعدة الفارغة لا تتذكر المحبوب؛ أما إذا امتلأت فإن المحبوب أول ما يُذكر ولا أدل على ما قلنا من هذه الحكاية (اصطحب شيخ وحدث من الأعراب، فكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ متخلع الأضراس بطيء الأكل، فكان الحدث يبطش بالقرص، ثم يقعد يشتهي العشق، ويتضور الشيخ جوعاً، وكان اسم الحدث جعفرأ. فقال الشيخ فيه:

لقد رابني من جعفر أن جعفرأ يطيش بقرصي ثم يبيكي على جمل
فقلت له لو مسك الحب لم تبت سميناً وأنساك الهوى شدة الأكل

وقال الحدث:

إذا كان في بطني طعامٌ ذكرتها وإن جعت يوماً لم تكن لي على ذكر
ويزداد حبي إن شبعتم تجددأ وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري)^(٥٣)

وما هذا بالأمر المستغرب عند الطفيليين؛ لأن الحب عندهم قد تحول مكانه من القلب إلى المعدة كما يقول ذلك أشعب أحد أشهر الطفيليين :

ألا أخبرت أخبـاراً أتت في زمن الشدة
وكان الحب في القلب فصار الحب في المعدة)^(٥٤)



وغالبا ما تنتهي علاقة العشق بالقطيعة إذا لم ترفد بالطعام، كما حصل مع أبي القماقم الذي كان يعشق جارية ويحاول أن يستغلها في اصطناع الطعام و إرساله إليه، (فبعث إليها أن إخوانا لي زاروني، فابعثي إليّ برءوس، حتى نتغدى ونصطبج على ذكرك. ففعلت، فلما كان في اليوم الثاني بعث إليها: إنا لم نفترق فابعثي إليّ سنبوسكا حتى نصطبج اليوم على ذكرك، فلما كان في اليوم الثالث بعث إليها: إن أصحابي مقيمون فابعثي إلى بقلية جزورية شهية، حتى نأكلها ونصطبج على ذكرك، فقالت لرسوله: إني رأيت الحب يحل في القلب، ويفيض على الأحشاء والكبد، وإن حب صاحبي هذا ليس يجاوز المعدة)^(٥٥)

تقديم النص والإرشاد للمتعلمين:

الطفيلي ذو علاقة قائمة على شيء من التعاون المتبادل مع رفاقه الطفيليين فيما يخص النص والإرشاد، وقد خلف أدب التطفل نصوص متعددة من النصائح و الوصايا تدور حول السلوكيات التي ينبغي أن يسير عليها الطفيلي المستجد كي يؤدي مهمته على أحسن صورة ، وهذه الوصايا لا تترك حتى أدق التفاصيل الصغيرة المتعلقة بالتصرفات في الولايم.

والطفيلي (المعلم) سخي إلى حد لا يوصف بإعطاء النصائح لمن طلبها من المتعلمين الطفيليين؛ لأنه حريص على ديمومة هذه الصنعة، ولطالما كان يشكو من تجاهل الناس لما يحسنه في هذه الصنعة ؛ فعلى الرغم من خدمة الطفيلي المتطاوله في هذه الصنعة إلا إن أحدا لم يبعث إليه صبيبا حتى يتعلم على يديه سر هذه الصنعة، وهو ما دعا بنان الطفيلي إلى أن ينعى على نفسه كسادها أمام جمع من الناس قائلا: (ما في الدنيا صناعة أخس من صناعتي! قالوا: وكيف ذاك يا أبا الحسن؟ قال: أنا أطقّل منذ ثلاثين سنة ما اسلموا إلى صبيبا يتعلم)^(٥٦).

بل ربما تعدى الأمر إلى أن يقدم الطفيلي نصائحه حتى لمن لم يسأله النصيح إمعانا منه في النصيحة الطفيلية للمبتدئين مع حرقة واضحة على عدم الحذق بهذه الصنعة، كما حصل ذلك مع الشيخ الطفيلي الذي نظر إلى احد المبتدئين فرآه يأكل من ثريد ابيض ويترك الثريد الأصفر، فما كان من الشيخ إلا صفعه قائلا له: (لا أم لك، إذا كنت في صناعة فتحقق فيها. أما عرفت أن الفرق بينهما الزعفران؟)^(٥٧).

أقدم الوصايا الطفيلية هي وصية طفيل الأعراس أو العرائس، الذي يعد رأس الطفيليين، وقد تضمنت أهم السلوكيات الواجب إتباعها عند الدخول إلى العرس، فهي تنصح الطفيلي بأن يكون هادئا ساكنا فلا يكثر من التلفت الذي قد يجلب الشك في أمره، كما تضمنت مسألة الاعتناء باختيار مكان الجلوس، وضرورة عدم النظر في عيون الناس حتى يحقق عنصر الإيهام بأنه من أهل الوليمة، كما احتوت على كيفية التعامل مع البواب الغليظ (وهو العدو التقليدي للطفيلي) بوسطية يسوسها الاعتدال بين الشدة واللين إذ يقول : (إذا دخل أحدكم عرساً فلا يلتفت تلفت المريب، ويتخير المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام فليمض، ولا ينظر في عيون الناس، ليظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل ويظن أهل الرجل أنه من أهل



المرأة، فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهاه، من غير تعنف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال^(٥٨).

يحتل المكان و اختياره أهمية خاصة في ادب وصايا الطفيليين، فالجلوس الذي يُمكن الطفيلي من المائدة أفضل عنده من زيادة أصناف الطعام على الرغم من حرص الطفيلي الشديد على زيادة هذه الأصناف، ولذا يقول بنان الطفيلي : (التمكن على المائدة خير لك من زيادة أربعة ألوان)^(٥٩).

أما إذا ضاق الموضع في الجلوس على الأكل فالطفيلي لا يعدم حيلة مجربة لتوسعة المكان، ونصيحته في هذا الأمر جاهزة (إذا قعدت على مائدة وكان موضعك ضيقاً، فقل للذي بجانبك: لعلني ضيقت عليك، فإنه يتأخر إلى خلف، ويقول: سبحان الله، لا والله يا أخي موضعي واسع، فيتسع عليك موضع رجل)^(٦٠).

والمكان المفضل عند الطفيلي هو الجلوس على اليمين؛ والسبب في ذلك واضح إذ إن الطفيلي يدرك تماماً أن البدء في هكذا محافل يكون من اليمين ولذا فإنه سيحظى من كل شيء بأوله وأفضله، فتراه يوصي مريديه من الطفيليين بقوله: (إذا دعاك صديق لك فاقعد من يمينة البيت، فإنك ترى كل ما تحب، وتسودهم في كل شيء، وتسبقهم إلى كل خير، وأنت أول من يغسل يده، والمنديل جاف والماء واسع، والخوان بين يديك يوضع، والنبيذ أول القنينة، ورأسها تشربه، والبقل منتخب يوضع بين يديك، وتكون أول من يتبخر، وإذا أردت أن تقوم لحاجة لم تحتج أن تتخطاهم، وأنت في كل سرور إلى أن تتصرف)^(٦١).

وبعد اختيار المكان المناسب تتجه وصايا الطفيليين إلى كيفية التعامل مع المأكولات الموجودة على المائدة، وأول ما ينصح به هو عدم ترك الطعام رجاء أن يجد خيراً منه، ثم كيفية التصرف في حال قلة الطعام أو كثرته، ثم عدم الإكثار من شرب الماء على المائدة لأنه يمنع من التزود من الطعام، ثم ينصح بان يتعامل مع الطعام تعامل من لم يره من قبل ولن يراه من بعد ذلك، كل هذه الوصايا نجدها مقدمة بسخاء من طفيلي (معلم) إلى احد المستجدين ألح في طلب النصيحة قائلاً: (أوصني. فقال: لا تصادفن من الطعام شيئاً فترفع يدك عنه وتقول: لعلني أصادف ما هو أطيب منه، فإن هذا عجز ووهن. قال: زدني. قال: إذا وجدت خبزاً فيه قلة فكل الحروف، فإن كان كبيراً فكل الأوساط. قال: زدني. قال: لا تكثرن شرب الماء وأنت تأكل فإنه يصدك عن الأكل ويمنعك أن تستوفي. قال: زدني. قال: إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً. قال: زدني. قال: إذا وجدت الطعام فاجعله زادك إلى الله)^(٦٢).

والأكل على طريقة الطفيليين لا يخلو من احتمال الاحتياج إلى الماء؛ لأنه عرضة للعطش أو الغصة بالطعام، غير أن الطفيلي قد اوجد الحل لذلك سريعاً، فقد (عطش رجل إلى جنب بنان في دعوة فقال



بنان ارفع نفسك إلى فوق وتنفس ثلاثاً فإنه ينزل ما أكلته من الطعام^(٦٣). وهذا أولى من شرب الماء عند الطفيلي لأنه يصد عن الطعام كما مر علينا.

والأكل طقس يُمنع فيه الكلام عند الطفيليين لأنه يشغل عن الطعام؛ ولذا فهم يوصون بعدم الإكثار منه؛ لان

(من جلس على مائدة، وأكثر كلامه غش بطنه)^(٦٤) ، أما إذا كان الشخص مضطراً للكلام حتى يساير من يقابله فهم ينصحونه بان لا يتكلم إلا بكلمة (نعم) فهي تؤدي الغرضين معا ؛ تساير المقابل ولا تمنع من الأكل ؛ ولذا ينصح احدهم بالقول: (إياك والكلام على الطعام إلا أن تقول نعم فإنها مضغة)^(٦٥).

ومما تقدم يتبين أن الطفيلي كما تُظهره نصوص ادب الطفيليين ،شخص معتن بمظهره الخارجي،لم بالمعارف والنصوص والأحكام الدينية،ذكي على نحو لافت، معتمد على حدسه وان أورده في المهالك، مشتمل على الطرافة، قوي البديهة،حاضر الجواب،هادئ الطبع لا يعتمد إلى الاستثارة إلا ليحصل على غرضه، ذو علاقة اجتماعية قائمة على النفعية، نلاحظ ذلك في علاقته مع رفاقه الطفيليين و في علاقاته الغرامية، مع سقاء غير مشهود في بذل النصح والإرشاد للمتطفلين.

الخصائص العامة لأدب الطفيليين:

تنوع الأشكال الفنية:

قد تنوع هذا الأدب في صور مختلفة ؛ فمنه ما ورد على هيئة حكايات متباينة الطول و القصر ،وهي تشغل الحيز الأكبر في هذا الأدب،والسمة العامة التي تنتظم هذه الحكايات أنها تنتهي في الأعم الأغلب باكتشاف شخصية الطفيلي بعد أن يظفر بمراده،مع توفر بعض الحكايات على مقاطع شعرية تعزز مضمون الحكاية وقد مر علينا نماذج وافية من هذه الحكايات، ومنه ما جاء على صورة الأسئلة والأجوبة، وقد كان الطفيلي فيها سريعة البديهة حاضر الجواب كما لاحظنا ،ومنه ما وصلنا بأسلوب النصائح والوصايا،والتي رأينا الطفيلي فيها سخيا من غير تحفظ مثلما مر علينا.

سهولة اللغة والإيجاز:

وهذا الأدب قد اعتمد على لغة سهلة واضحة،تميل إلى الاستعمالات الوظيفية الحقيقية وتبتعد عن الاستعمالات المجازية إلا في بعض المواضع،مع ميل واضح إلى الإيجاز في العبارة، لان الطفيلي منشغل بمطلبه عن الخوض في التفاصيل التي قد تضيق الفرصة عليه؛ بل هو يرى أن الإكثار من الكلام خيانة للبطن.

غلبة المقطعات الشعرية والبحور الخفيفة:



الأعم الأغلب من نصوص هذا الأدب تروى منسوبة إلى مجرد (طفيلي) ، وخصوصا تلك النصوص التي احتوت على نصوص شعرية فلا يُعرف قائلها؛ باستثناء بعض النصوص التي تُعزى لأسماء الطفيليين المشهورين، وتمتاز هذه النصوص الشعرية بأنها في الغالب مقطعات قصيرة ، تنتمي إلى البحور الخفيفة التي تتناسب مع أجواء المرح والبعد عن الجدية في تعاطي الأشياء.

حضور الجمل الإنشائية:

تسجل الجمل الإنشائية الطلبيه حضورا فاعلا في ادب التطفيل ، وخصوصا في ادب الوصايا بوصفه يقدم مجموعة من الحلول العملية للطفيليين المتعلمين ، ويأتي أسلوبا الأمر و النهي في مقدمة هذه الأساليب ، كما نجد ذلك في نصيحة احد الطفيليين لأصحابه وقد دخلوا إلى وليمة قائلا: (افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم؛ وأجيدوا اللف، واشرعوا الأكف، ولا تمضغوا مضغ المتعللين، الشباع المتخمين؛ واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب) (٦٦).

وقد يخرج هذان الأسلوبان عن حقيقتهما إلى غرض الدعاء حين يطلب أن يكون البواب رقيقا في تعامله مع الطفيلي ، كما نرى في دعاء هذا الطفيلي: (اللهم لا تجعل البواب لكازا في الصدور، دفاعا في الظهور؛ طراحا للقلانس؛ هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا إذنه) (٦٧). أو حين يطلب احدهم من الطفيلي أن يدعوا له ، كما نجد ذلك في صيغ الأمر في دعاء بنان الطفيلي لرجل سألته الدعاء فقال: (اللهم ارزقه صحة الجسم وكثرة الأكل، ودوام الشهوة، ونقاء المعدة، وأمتعته بضرس طحون، ومعدة هضوم، مع السعة والدعة، والأمن والعافية) (٦٨).

وأسلوب الاستفهام يحضر في نصوص الطفيليين؛ ولكن بخصوصية طفيلية إذ إن الطفيلي يستعمل الاستفهام ليرد به على استفهام سابق لم يعجبه، فهو استفهام خرج عن حقيقته أما للتهكم من السائل، وأما لإثارة روح المرح، فقد (قيل لبعضهم: لم تأكل بخمس أصابع؟ قال: ولي أكثر منها؟!) (٦٩). و(قيل لبعضهم: كل من قدامك. فقال: أترى من خلفي هو ذا أكل؟) (٧٠). و(دخل طفيلي على رجل قد دعا قوماً، فقال له صاحب

المنزل: يا هذا متى قلت لك تجي؟ قال: ومتى قلت لي: لا تجي؟) (٧١).

المحسنات البديعية:

ويظهر واضحا ميل هذه النصوص المتقدمة نحو استعمال الازدواج في إيراد الجمل ونعني به (تساوي الفقرتين في الطول مع السجع) (٧٢)، مع جنوح لاستعمال أسلوب الطباق بنوعيه: طباق السلب بان يكون احد الطرفين مثبتا والآخر منفيًا، كما في النص المتقدم (تجيء) و (لا تجيء)، وطباق الإيجاب بذكر المعنى وضده ، كما في قول احد الطفيليين متهجما على الحمية عن الطعام مستعملا المطابقة بين (الشك) و (اليقين): (من احتمى فهو على يقين من مكروه الجوع، وفي شك من العافية) (٧٣).



الميل لاستعمال الجمل الشرطية:

والظاهرة الأوضح في أدبهم استعمال أسلوب الشرط كثيرا؛ ذلك أن الطفيلي على ما يبدو يضع كل الاحتمالات في حسبانته، فتراه يعتمد إلى هذا الأسلوب الذي يتيح له وضع الحلول المناسبة لما قد يطرأ عليه ، وقد تقدمت وصية رأس الطفيليين وأسلوب الشرط واضح فيها تماما ، كما يتضح في قول احدهم: (إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في حال أكلك، وإن كلمك من لابد لك من جوابه، فلا تجبه إلا بقول: نعم، فإن الكلام يشغل عن الأكل؛ وقول نعم مضغة)^(٧٤). وكما نجد أسلوب الشرط في قول هذا الطفيلي لأحدهم: (لا تنادم أحدا، فإن كنت لابد فاعلا فنادم من لا يستأثر عليك بالمخ، ولا ينتهب بيضة البقلية، ولا يلتقم جلد الدجاجة...) (٧٥)

التشويق باستعمال الإيضاح بعد الإبهام:

الطفيلي قد يلجأ إلى التشويق باستعمال أسلوب الإيضاح بعد الإبهام ، فيذكر عددا مقرونا بوصف مشوق، تاركا المتلقي متلهفا لسماع تفاصيل ذلك العدد، كما في قولهم: (ليس في الأرض عود أكرم من ثلاثة أعواد: عصا موسى، وخشب منبر الخليفة، وخوان الطعام)^(٧٦). وكما في قول آخر: (أفضل البقاع وخيرها ثلاثة. قيل: وما هي؟ قال: دكان الرّواس، ودرجة الخباز، ومطبخ الجواد. وأفضل الخشب وخيره ثلاثة: سفينة نوح، وعصا موسى، ومائدة يؤكل عليها)^(٧٧).

الألفاظ ذات الأصول غير العربية:

يشيع في ادب الطفيليين استعمال الألفاظ ذات الأصول غير العربية، وبالأخص ألفاظ الطعام و أسماء الأكلات والأشربة وأواني الطعام، كالبادنجان والسكاج وهو مرق يعمل من اللحم والخل كما في قول احد الطفيليين: (أطيب ما يكون البادنجان في السكاج والحصرمية والمضيرة والكشكية، وأطيب ما يكون لحم الحمل: في العدسية والمضيرة والحصرمية والكشكية)^(٧٨).

وكالفلودج وهو نوع من الحلواء ، و الخوان وهو ما يوضع عليه الطعام، كما نجد في هذا النص (أتى رقبة بن مصقلة العبدى مسعر بن كدام، فاستلقى على ظهره، فقال: مالك يا أبا عبد الله؟ قال: صريع الفلودج، كنا في دار رجل قضى بين الناس في الجماعة وحكم بينهم في الفرقة، دعانا الوليد بن رحب بن الحارث بن أبي موسى الأشعري إلى وليمة، فأتانا بخوان كجوبة من الأرض، ثم أتانا بخبز رقاق كأذان الفيلة، ثم أتانا بجرجير كأذان المعز، ثم أتانا بثريده ملساء، ثم أتانا بساكنة الماء كأن ظهرها ظهر طير قيراطي، ثم أتينا بفلودج يقرأ نقش الدرهم من تحته؛ فوضع على رأس حب، فنحن على لذة من هذا وعلى يقين من ذلك. فقال له مسعر - وكان يكنى أبا سلمة - : يا أبا عبد الله! أراك طفيليا؟ فقال: يابا - وكانت كلمتهم - كلهم طفيليون، ولكنهم يبتكمون)^(٧٩).



- (١٣) المزهري في علوم اللغة وأنواعها : ٣٠٧/١ .
- (١٤) ينظر : إصلاح المنطق: ٣٢٢ ، والبخلاء: ٢١٥ ، و انساف الأشراف : ٢٢٥/١٣ ، و التطفيل وحكايات الطفيليين : ٤٦ ، و الصحاح : ١٧٥٢/٤ ، وتاج العروس : ٣٧٤/١٦ ، ولسان العرب : ٢١٨٣/٤ .
- (١٥) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : ٢٩٨/٣ .
- (١٦) ينظر : م.ن : ٢٩٨/٣ ، وتاج العروس : ٣٧٥ / ١٦ ، ولسان العرب : ٢٦٨٣/٤ .
- (١٧) ينظر : م.ن : ٢٩٨/٣ .
- (١٨) ينظر: التطفيل وحكايات الطفيليين : ٨٣ ٩٩ وينظر العقد الفريد : ٢٣٢ / ٧ ، ونهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠٣ / ٣ .
- (١٩) ينظر: نوادر البخلاء نصوص و دراسة : ٨٣ .
- (٢٠) التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٣٦ ، وينظر: العقد الفريد: ٢٣٦/٧ ، ونهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٠١/٣ .
- (٢١) التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٣٥ ، وينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠١/٣ .
- (٢٢) م.ن: ١٣٦ .
- (٢٣) م.ن: ١٣٨ .
- (٢٤) نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠١/٣ .
- (٢٥) ينظر: التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٣٤١٣٨ .
- (٢٦) ينظر: م.ن: ٩٥ .
- (٢٧) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠٠ / ٣ .
- (٢٨) التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٣٥ .
- (٢٩) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : ٢٩٩/٣ .
- (٣٠) التطفيل وحكايات الطفيليين: ١٣٤ ١٣٥ .
- (٣١) م.ن: ٨٣ .
- (٣٢) الأذكياء: ١٦٢ .
- (٣٣) نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠٧/٣ .
- (٣٤) إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس: ٣١٤ .
- (٣٥) ينظر: عناصر مشتركة في ادب الطفيليين والمكدين و البخلاء: مقدمة البحث.
- (٣٦) نثر الدر: ١٨٥ / ٢ .
- (٣٧) نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠٠/٣ ، ينظر: التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٢٦١٢٧ ، و الأذكياء: ١٦٢ ، والفصوص: ٢٢٤٢٢٩/٢ .
- (٣٨) الأذكياء: ١٦٤ .
- (٣٩) نثر الدر: ١٨٤١٨٥ / ٢ ، وينظر: التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٠٦١٠٧ .
- (٤٠) العقد الفريد: ٢٢٩٢٣٠/٧ ، وينظر: الأذكياء: ١٦٢ .
- (٤١) نثر الدر: ١٧٥/٢ ، وينظر: الأذكياء: ١٦١ .
- (٤٢) العقد الفريد: ٢٣١٢٣٢/٧ .



- (٤٣) م.ن: ٢٣٦/٧، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٠٢/٣.
- (٤٤) نثر الدر: ١٧٤/٢ .
- (٤٥) م.ن: ١٧٥/٢،، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٠٢/٣.
- (٤٦) العقد الفريد: ٢٣٦/٧، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٠١/٣.
- (٤٧) م.ن: ٢٢٨/٧، ، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٠١/٣.
- (٤٨) م.ن: ٢٣٥/٧، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٠٢/٣.
- (٤٩) م.ن: ٢٣١/٧.
- (٥٠) نثر الدر: ١٧٤/٢ .
- (٥١) م.ن: ١٧٢/٢.
- (٥٢) الأذكياء: ١٦٤.
- (٥٣) العقد الفريد: ٢٣٧/٧.
- (٥٤) م.ن: ٢٣٨/٧.
- (٥٥) نثر الدر: ١٧٩/٢، والسنبوسك: فطائر تُعمل من رفاق العجين وتُحشى باللحم والجوز.
- (٥٦) م.ن: ١٨٤/٢.
- (٥٧) م.ن: ١٧٢/٢.
- (٥٨) العقد الفريد: ٢٢٧/٧، وينظر: الأذكياء: ١٦٣، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢٩٨/٣.
- (٥٩) الأذكياء: ١٦٥.
- (٦٠) نثر الدر: ١٨٣/٢، وينظر: الأذكياء: ١٦٥، ، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢٩٨/٣.
- (٦١) م.ن: ١٨٣/٢، ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : ٢٩٩/٣.
- (٦٢) م.ن: ١٨٣١٨٤/٢، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : ٢٩٩/٣.
- (٦٣) الأذكياء: ١٦٥.
- (٦٤) نثر الدر: ١٧٢/٢ .
- (٦٥) الأذكياء: ١٦٥.
- (٦٦) التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٠٩.
- (٦٧) م.ن: ١٠٨١٠٩.
- (٦٨) نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢٩٨/٣.
- (٦٩) نثر الدر: ١٧٢/٢ .
- (٧٠) م.ن: ١٧٦/٢.
- (٧١) م.ن: ١٨٦ /٢.
- (٧٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٩٨/١.
- (٧٣) نثر الدر: ١٧١/٢ .
- (٧٤) التطفيل وحكايات الطفيليين : ١١١.
- (٧٥) م.ن: ١٣١.



- (٧٦) العقد الفريد: ٢٢٧/٧.
- (٧٧) نثر الدر: ١٧٤/٢، والرؤاس بائع الرؤوس.
- (٧٨) التطفيل وحكايات الطفيليين: ١٥٣، وينظر في أصول هذه المفردات: الألفاظ الفارسية المعربة: ١٥، ٩٢، وألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ: ٤٤٥، ٤٤٩.
- (٧٩) م.ن: ٨٥٨٦، وينظر في أصول هذه المفردات: الألفاظ الفارسية المعربة: ٥٨، ١٢١، وألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ: ٤٤٧، ٤٦٤.
- (٨٠) م.ن: ١٣٠، وينظر في أصول هذه المفردات: الألفاظ الفارسية المعربة: ٤٩، ١٣٦، ١٤٢، وألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ: ٤٤٦، ٤٦٢.

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة أن تكشف شيئاً من الغموض الذي يلف الطفيليين وهم من أشهر الشخصيات الهامشية التي ملأت كتب الأدب التراثية بالنوادر و الحكايات التي طالما أدخلت البهجة و السرور والفرح على النفوس بمواقفها المرححة؛ فعمدت الدراسة إلى القيام بالتأصيل لأدب هذه الفئة وذلك بالبحث عن أهم المصادر التراثية التي صرفت جهداً لجمع إخبار الطفيليين ونوادرهم ووصاياهم وأدبهم؛ ومن ثم عمدت الدراسة إلى محاولة الاقتراب من الأسباب والدوافع التي تقف وراء نشأت التطفيل، ثم ذهبت إلى استقراء أهم الخصائص التي اتصفت بها شخصية الطفيلي، وانتهت إلى رصد أبرز سمات ادب الطفيليين.

Abstract

Intruders' Literature - Origin and General Characteristics-

THIS study tries to uncover some of the ambiguity that enfolds one of the marginal well-known figures that has filled the books of Literature with their situations, stories and anecdotes which often add joy, ecstasy and happiness to the souls of people. This study aims at studying the origin of this category through searching the important traditional references that have exerted some effort on collecting the storier and news of the intruders and their anecdotes,



bequests, and literature. This study attempts to approach the intruding reasons and motive behind the origination of intruding . It also infers the crucial characteristics that are adhered to the personality of the intruder. It has figured out the most prominent features of the intruders literature in its conclusion.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الأذكياء، ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، (٥٥٩٧هـ) ، تح: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

إصلاح المنطق، ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن اسحق، (٥٢٢٤هـ)، تح: احمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٩م، ط٤.

إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، الاتليدي، محمد دياب، (١١٠٠هـ)، دار صادر، بيروت لبنان، ١٩٩٠م.

ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، د. طيبة صالح الشذر، دار قباء ، القاهرة، ١٩٩٨م.

الألفاظ الفارسية المعربة، أدّي شير، المطبعة الكاثوليكية لليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

انساب الأشراف، البلاذري، احمد بن محمد بن يحيى، (٥٢٧٩هـ)، تح: سهيل زگار، د. رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

البخلاء، الجاحظ، عمرو بن بحر، (٥٢٢٥هـ)، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م، ط٧.

تاج العروس، الزبيدي، محمد مرتضى، (١٢٠٥هـ)، تح: محمد محمود الطناحي. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٦م.

التذكرة الحمدونية، بن حمدون، محمد بن الحسن البغدادي، (٥٦٢هـ)، تح: د. إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، الخطيب البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت، (٤٦٣هـ)، تح: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ١٩٩٩م.



- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (٥٤٢٩هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم/دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (٥٤٥٣هـ)، تح: د. زكي مبارك، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٢م، ط٤.
- الصاحح، الجوهري، إسماعيل بن حماد، (٥٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م، ط٤.
- العقد الفريد الفريد، ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (٥٣٢٨هـ)، تح: د. عبد الحميد الترحيبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- عناصر مشتركة في ادب الطفيليين والمكدين والبخلاء، د. خالد عزازية، منشورات جامعة ، عدد: ٧
- فص الخواتم فيما قيل في الولايم، ابن طولون، محمد بن علي بن أحمد، (٥٩٥٣هـ)، تح: نزار أباطة، دمشق، ١٩٨٣م.
- الفصوص، البغدادي، أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي، (٥٤١٠هـ)، تح: د. عبد الوهاب التازي سعود، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ١٩٩٣م.
- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، (٥٧١١هـ)، دار المعارف، القاهرة مصر.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، (٥٩١١هـ)، تح: جاد المولى وآخرين، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين، (٥٦٢٦هـ)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٣م.
- نثر الدر في المحاضرات، الآبي، الوزير أبو سعد منصور بن الحسين، (٥٤٢١هـ)، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (٥٧٣٣هـ)، تح: د. حسن نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- نواذر البخلاء نصوص ودراسة د. محمد عبد الرحمن الربيع، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م

